بسم الله الرحمن الرحيم

٥٧ ـ سورة الحديد

سميت به لأنه ناصر لله ولرسوله فى الجهاد ، فنزل منزلة الآيات الناصرة لله ولرسوله ، على أنه سبب لإقامة العدل ، كالقرآن . وأيضاً أنه جامع للمنافع ، فأشبهه أيضاً ، فسميت سورة ذكر فيه ، بذلك ـ أفاده المهايمىّ ـ .

وهى مدنية على الأصح ، بل قال النقاش : إنها مدنية بإجماع المفسرين ، ونظم آياتها ، وما تشير إليه ، يؤيده قطعاً .

وآيها تسع وعشرون .

روى الإمام أحمد[1] عن عرباض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد . وقال : إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية . وهكذا رواه أبو داود والترمذىّ والنسائىّ . قال ابن كثير : والآية المشار إليها فى الحديث هى ـ والله أعلم ـ قوله تعالى (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ . . .) الآية ، لما سيأتى بيانه ـ والله أعلم ـ .

---

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى أظهر كل موجود تنزيهه عن الشريك والولد ، وكل ما لا يليق به ، وآذن بانفراده فى ألوهيته ، وتدبيره وعلمه وقدرته . فإن من شاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها ، على حال من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لاتنقضى عجائبه ، ولا تنتهى غاياته ـ فبالضرورة يقضى بأن هذا الترتيب المحكم هو أثر خالق واحد ، مدبر لنظامه ، مريد لسيره فى سننه ، كما بسطناه فى (دلائل التوحيد) . « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى القوىّ الذى يقهر كل ما فى السموات والأرض « ٱلْحَكِيمُ » أى الذى رتب نظام كل موجود على ترتيب حكمىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، يُحْيِۦ وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

« لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى سلطانهما ، ونفوذ الأمر فيهما « يُحْيِۦ وَيُمِيتُ » أى يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء ، ويميته بعد بلوغه أجله فيفنيه « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » أى تام القدرة ، فلا يتعذر عليه شىء أراده من إحياء وإماتة وغيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« هُوَ ٱلْأَوَّلُ » أى السابق على كل موجود، من حيث إنه موجده ومحدثه «وَٱلْءَاخِرُ»

أى الباقى بعدفناء كل شىء « وَٱلظَّـٰهِرُ » أى وجوده بالأدلة الدالة عليه. وقال ابن جرير[١]. أى الظاهر على كل شىء دونه ، وهو العالى فوق كل شىء ، فلا شىء أعلى منه «وَٱلْبَاطِنُ» أى باحتجابه بذاته وماهيته . أو العالم بباطن كل شىء . قال ابن جرير[١] : أى الباطن جميعَ الأشياء ، فلا شىء أقرب إلى شىء منه ، كما قال[٢] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) « وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » أى تام العلم ، فلا يخفى عليه شىء .

وقد روى الإمام أحمد[٣] عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم : اللهم ! رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شىء. وأنت الآخر فليس بعدك شىء. وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن ليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر ـ ورواه مسلم[٤] وغيره ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » قال القاشانىّ : أى من الأيام الإلهية ، وقيل : المعهودة ـ والله أعلم ـ . « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ » قال ابن جرير[٥] :

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٥٠ / قّ / ١٦] .
(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
(٤) أخرجه فى: ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٦١ (طبعتنا).
(٥) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أى هو الذى أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبّرهن وما فيهن ، ثم استوى على عرشه ، فارتفع عليه وعلا . « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ » أى من خلقه كالأموات والبذور والحيوانات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى كالزروع « وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرَد والأقدار والأحكام « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة والأعمال وغيرهما . « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ » قال ابن جرير[1] : أى وهو شاهد لكم ، أينما كنتم ، يعلَمكم ويعلَم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى (شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى سورة الحديد والمجادلة، فى آيتيهما، ثبت تفسيره عن السلف بالعلم . قالوا :هو معهم بعلمه. وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم أحد يعتدّ بقوله . وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثورىّ وأحمد بن حنبل وغيرهم . قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية : هو على العرش وعلمه معهم ، وهكذا عمن ذكر معه . وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية فى (الرد على الجهمية) . ولفظ المعية فى كتاب الله جاء عاماً كما فى هاتين الآيتين ، وجاء خاصًّا كما فى قوله تعالى[2] (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) وقوله[3] (إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) وقوله[4] (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) فلو كان المراد بذاته مع كل شىء، لكان التعميم يناقض التخصيص ، فإنه قد علم أن قوله (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) أراد به تخصيصه وأبا بكر، دون عدوّهم من الكفار . وكذلك قوله (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)، خصهم بذلك دون الظالمين والفجار. وأيضاً ، فلفظ المعية، ليست فى لغة العرب، ولا شىء من

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] . (٣) [٢٠ / طه / ٤٦] .
(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] .

القرآن ، أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى ، كما فى قوله[١] (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ) وقوله[٢] (فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقوله[٣] (ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ) وقوله[٤] (وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله[٥] (وَهُوَ مَعَكُمْ) يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق . وأيضاً ، فإنه افتتح الآية بالعلم ، وختمها بالعلم ، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم به . وقد بُسِط الكلام عليه فى موضع آخر ، وبيّن أن لفظ المعية فى اللغة ، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقاربة ، فهو إذا كان مع العباد ، لم ينافِ ذلك علوّه على عرشه ، ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه . مع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد . انتهى .

وقال الإمام موفق الدين بن قدامة المقدسىّ رضى الله عنه فى كتاب (ذم التأويل) :

فإن قيل : فقد تأولتم آيات وأخباراً ، فقلتم فى قوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) أى بالعلم ، ونحو هذا من الآيات والأخبار ، فيلزمكم ما لزمنا ؟

قلنا : نحن لم نتأول شيئاً ، وحملُ هذه اللفظات على هذه المعانى ليس بتأويل ، لأن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذه المعانى هى الظاهر من هذه الألفاظ ، بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها . وظاهر اللفظ هو ما يسبق إلى الفهم منه ، حقيقة كان أو مجازاً . ولذلك كان ظاهر الأسماء العرفية ، المجاز دون الحقيقة ، كاسم الراوية والظعينة وغيرهما من الأسماء العرفية ، فإن ظاهر هذا ، المجاز دون الحقيقة . وصرفها إلى الحقيقة يكون تأويلاً يحتاج إلى دليل . وكذلك الألفاظ التى لها عرف شرعىّ ، وحقيقة لغوية ، كالوضوء والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، إنما ظاهرها العرف الشرعىّ دون الحقيقة اللغوية . وإذا تقرر هذا ، فالمتبادر

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٦] .
(٣) [٩ / التوبة / ١١٩] . (٤) [٨ / الأنفال / ٧٥] .
(٥) [٥٧ / الحديد / ٤] .

إلى الفهم من قولهم (إن الله معك) أى بالحفظ والكلاءة . ولذلك قال الله تعالى فيما أخبر عن نبيّه[١] (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، وقال لموسى[٢] (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) ، ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص ، لوجوده فى حق غيرهم ، كوجوده فيهم ، ولم يكن ذلك موجباً لنفى الحزن عن أبى بكر ، ولا علة له . فعلم أن ظاهر هذه الألفاظ هو ما حملت عليه ، فلم يكن تأويلًا . ثم لو كان تأويلا فنحن تأوّلناه ، وإنما السلف رحمة الله عليهم ، الذين ثبت صوابهم ، ووجب اتباعهم ، هم الذين تأوّلوه . فإن ابن عباس والضحاك ومالكا وسفيان وكثيراً من العلماء قالوا فى قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ) أى علمه . ثم قد ثبت بكتاب الله ، والمتواتر عن رسول الله ﷺ وإجماع السلف ؛ أن الله تعالى فى السماء على عرشه ، وجاءت هذه اللفظة مع قرائن محفوفة بها دالة على إرادة العلم منها ، وهو قوله[٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ثم قال فى آخرها (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) . فبدأها بالعلم ، وختمها به ، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم ، وأنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ويجازيهم عليه ، وهذه قرائن كلها دالة على إرادة العلم ، فقد اتفق فيها هذه القرائن ، ودلالة الأخبار على معناها ، ومقالة السلف وتأويلهم . فكيف يلحق بها ما يخالف الكتاب والأخبار ومقالات السلف ؟ فهذا لا يخفى على عاقل إن شاء الله تعالى ، وإن خفى فقد كشفناه وبيّناه بحمد الله تعالى . ومع هذا لو سكت إنسان عن تفسيرها وتأويلها لم يخرج ولم يلزمه شىء ، فإنه لا يلزم أحداً الكلام فى التأويل إن شاء الله تعالى . انتهى كلام ابن قدامة رحمه الله .

« وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

---

(١) [٩ / التوبة / ٤٠] .
(٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ)

[٦] (يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) .

« لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ » أى أمور جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه . « يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ » أى يدخل ما نقص من ساعات أحدهما فيجعله زيادة فى الآخر بحكمته وتقديره . « وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بضمائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم من خير أو شر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

« ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » أى آمنوا الإيمان اليقينىّ ليظهر أثره عليكم ، فيسهل عليكم الإنفاق من مال الله الذى موّلكم إياه ، وجعلكم مستخلفين فيه ، بتمكينكم وإقداركم على التصرّف فيه بحكم الشرع ، إذ الأموال كلها لله ، واختصاص نسبة التصرّف إنما هو بحكمه فى شريعته ـ أفاده القاشانىّ ـ .

وقال الشهاب : الخلافة إمّا عمّن له التصرّف الحقيقىّ ، وهو الله تعالى ، وهو المناسب لقوله (لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ، أو عمّن تصرّف فيها قبلهم ممن كانت فى أيديهم فانتقلت لهم . وعلى كلٍّ ، ففيه حثٌّ على الإنفاق ، وتهوينٌ له . أما على الأول فظاهر . لأنه أذن له فى الإنفاق من ملك غيره ، ومثله يسهل إخراجه وتكثيره . وعلى الثانى أيضاً ، لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله ، علم أنه لا يدوم له أيضاً ، فيسهل عليه الإخراج .

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولابدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ[1]

« فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ » أى وما يصدّكم عنه ، وقد ظهرت دواعيه ، واتضحت سبله لذويه كما قال « وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ » أى يدعوكم من طريق النظر والتفكُّر إلى الإيمان بالذى ربَّاكم بنعمه ، وصرّفكم بآلائه ، فوجب عليكم شكره . « وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ » أى بالإيمان ، إذ ركّب فيكم العقول ، ونصب الأدلّة ، ومكّنكم من النظر ، بل أودع فى فطركم ما يضطركم لذلك إذا نُبهتم ، وقد حصل ذلك بتذكير الرسول ، فما عليكم إلا أن تأخذوا فى سبيله . « إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » قال القاشانىّ : أى إن بقى نور الفطرة والإيمان الأزلىّ فيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » أى حُجَجًا واضحات ، وبراهين قاطعات ، « لِّيُخْرِجَكُم » أى الله ، أو عبده بآياته « مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ » أى من ظلمات

(١) قائله لبيد ، من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينا وما تبلَى النجومُ الطوالعُ وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانعُ

(الشعر والشعراء ص ٢٣٦).

الجهل والكفر والأهواء المتضادّة، إلى نور الهدى واليقين، الذى تشعر به النفوس، وتطمئن به القلوب . « وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » أى فى إنزاله الكتب ، وإرساله الرسل لهدايتكم ، إزاحة للعلل ، وإزالة للشبه .

ولما كان إنزال هذه السورة للأمر بالإنفاق فى سبيل الله ، والترغيب فيه ، والحث عليه، أكثر من ذكره فى ضروب من البيان ، وفنون من الأحكام . ولذا قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ، أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ، وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى يرث كل شىء فيهما ، ولا يبقى لأحد مال . وإذا كان كذلك ، فما أجدر أن ينفق المرء فى حياته ، ويتخذه ذخراً يجده بعد مماته .

قال الشهاب : هذا من أبلغ ما يكون فى الحث على الإنفاق ، لأنه قرنه بالإيمان أولًا لما أمرهم به ، ثم وبخهم على ترك الإيمان ، مع سطوع براهينه، وعلى ترك الإنفاق فى سبيل من أعطاه لهم ، مع أنهم على شرف الموت، وعدم بقائه لهم إن لم ينفقوه. وسبيل الله كل خير يوصلهم إليه ، أعم من الجهاد وغيره . وقصر بعضهم إياه على الجهاد، لأنه فرده الأكمل ، وجزؤه الأفضل ، من باب قصر العامّ على أهم أفراده وأشملها ، لاسيما وسبب النزول كان لذلك .

« لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ » أى من قبل فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، وقاتل لتعلو كلمة الحق . ومن أنفق من بعد وقاتل فى حال قوة الإسلام ، وعزة

أهله . فحذف الثانى لوضوح الدلالة عليه . فإن الاستواء لايتم إلا بذكر شيئين . على أنه أشير إليه بقوله مستأنفاً عنهم ، زيادة فى التنويه بهم: « أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ » أى لعظم موقع نصرة الرسول ، صلوات الله عليه ، بالنفس ، وإنفاق المال فى تلك الحال ، وفى المسلمين قلة ، وفى الكافرين شوكة وكثرة عدد . فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح ، فإن الإسلام صار فى ذلك الوقت قويًّا ، والكفر ضعيفاً . ويدل عليه قوله تعالى[1] (وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ) وقوله عليه الصلاة والسلام[2] : لاتسبوا أصحابى ، فلو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهباً مابلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه . وهذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ ـ أفاده الرازىّ ـ .

وفى (الإكليل) : فى الآية دليل على أن للصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم ، وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ، لأن الأجر على قدر النصب . انتهى .

« وَكُلًّا » أى وكل واحد من الفريقين « وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، لا الأولين فقط ، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء .

قال ابن كثير : وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر ، فيمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه .

« وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى من النفقة فى سبيله ، وجهاد أعدائه ، وغير ذلك فيجازيكم على جميع ذلك .

قال ابن كثير : ولخبرته تعالى ، فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك . وماذاك إلا لعلمه بقصد الأول ، وإخلاصه التامّ ، وإنفاقه فى حال الجهد

---

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٢١ (طبعتنا) . عن أبى هريرة .

والقلة والضيق . وفى الحديث[1]: سبق درهم مائة ألف . ولاشك عند أهل الإيمان أن الصدّيق أبا بكر رضى الله عنه ، له الحظّ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

« مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّـهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال أبو السعود : ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق فى سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين . أى : من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه . وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات له . فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصاً فى أفضل جهات الإنفاق . وذلك إما بالتجوز فى الفعل ، فيكون استعارة تبعية تصريحية ، أو فى مجموع الجملة ، فيكون استعارة تمثيلية . وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة فى القتال ، وآخرون على نفقة العيال . قال ابن كثير : والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكلّ من أنفق فى سبيل الله بنيّة خالصة ، وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية .

وهو جلّ ، وقد أسلفنا بيانه مراراً .

وقوله تعالى « فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ » أى يعطيه ثوابه أضعافاً مضاعفة ، « وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ » أى جزاء شريف جميل . والجملة حالية ، أو معطوفة مشيرة إلى أن الأجر كما زاد كَمُّهُ ، زاد كَيْفُهُ .

---

[1] أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٤٩ ـ باب جهد المقلّ ، عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

« يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ » أى : لكونهم على الصراط المستقيم ، متوجهين إليه تعالى . و (النور) إما حقيقىّ حسىّ ، على ما روى عن ابن مسعود : أن نورهم على قدر أعمالهم ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، فدون ذلك . قيل : وإنما خصصت تلك الجهات ، لأن منها أخذت صحف الأعمال ، فجعل الله معها نوراً يعرف به أنهم من أصحاب اليمين وإما مجازىّ معنوىّ مراد به ما يكون سبباً للنجاة ، واختاره ابن جرير[1] ، وأيده بقوله : لوعنى بذلك النور ، الضوء المعروف ، لم يخص عنه الخبر بالسعى بين الأيدى والأيمان ، دون الشمائل ، لأن ضياء المؤمنين الذين يؤتونه فى الآخرة يضىء لهم جميع ماحولهم ، وفى تخصيص الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمانهم ، دون الشمائل ، ما يدل على أنه معنىّ به غير الضياء وإن كانوا لا يخلون من الضياء . فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا : وكلاًّ وعد الله الحسنى يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعى ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى أيمانهم كتب أعمالهم تطايرُ . ويعنى بقوله (يسعى) يمضى والباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى (فى) وكان بعض نحويى البصرة يقول : الباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى (على أيمانهم) وقوله « يوم ترى » من صلة (وَعَدَ) . انتهى .

« بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ » أى : يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة : بشراكم أى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

المبشَّر به جنات أو بشراكم دخول جنات . وقد قيل: إن البشارة تكون بالأعيان فلا حاجة لتقدير مضاف تصحيحاً للحمل .

« تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ)

«يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ»أى: نُصِبْ منه . يقال : اقتبس ، أى : أخذ قبساً ، وهو الشعلة . و (انظرونا) بمعنى انظروا إلينا ، على الحذف والإيصال، لأن النظر بمعنى مجرد الرؤية، يتعدى بـ (إلى) فإن أريد التأمل تعدى بـ (فى). وقولهم ذلك، إما حينما يساق المؤمنون إلى الجنة زمراً، والمنافقون فى العرصات شاخصون إليهم ، أو حينما يشرفون من الغرف على المنافقين ، وهم فى ضوضائهم وجلبتهم فى جهنم، كقوله تعالى[1](وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ...) الآية . وقيل: (انظرونا) بمعنى انتظرونا، وهو الذى عول عليه ابن جرير[2] . والمراد حينئذ من الانتظار للاقتباس ، هو رجاء شفاعتهم لهم ، أو دخولهم الجنة معهم طمعاً فى غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حينما يسرع بهم إلى الجنة .

« قِيلَ » أى : قالت الملائكة أو المؤمنون ، «ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا»قال الزمخشرىّ : طردٌ لهم ، وتهكم بهم . أى : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هـذا النور

(١) [٧ / الأعراف / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فالتمسوه هناك ، فمن ثم يقتبس . أو ارجعوا إلى الدنيـــا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه ، وهو الإيمان . أو ارجعوا خائبين ، وتنحوا عنا ، فالتمسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو تخييب وإقناط لهم . وكلامه يدل على حمل النور على حقيقته . ولا مانع من أنه كنى به عن الإيمان والعمل الصالح . أى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا إيماناً وعملاً طيباً يهديكم إلى النجاة ، كما أن النور يهدى فى الظلمات، على طريق الاستعارة . والأمر للتخسير والتنديم . وهذا ، مع ما ذكره الزمخشرىّ رحمه الله ، وجه رابع .

ونقل الرازىّ عن أبى مسلم؛ أن المراد من قول المؤمنين (ارجعوا) منع المنافقين عن الاستضاءة. كقول الرجل لمن يريد القرب منه: وراءك أوسع لك. قال الرازىّ: فعلى هذا القول، المقصودُ من قوله (ارجعوا) أن يقطعوا بأنه لا سبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب، لأنه أمر لهم بالرجوع. انتهى . وهذا وجه خامس .

ثم أشار إلى امتياز الفريقين فى المنازل وتباينهما فيها، بقوله سبحانه: « فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ » أى : بين المؤمنين والمنافقين بحائط متين ، يحجزهم عن أنوار المؤمنين، لتتم ظلمتهم « لَّهُۥ » أى: لذلك السور « بَابٌ » أى: لأهل الجنة يدخلون منه، ويرى به المنافقون المؤمنين ليكلموهم « بَاطِنُهُۥ » وهو الجانب الذى يلى المؤمنين « فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ » يعنى: الجنة وما فيها من رضوان الله والنعيم المقيم . « وَظَـٰهِرُهُۥ » وهو الذى يلى المنافقين ، « مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ » أى : من عنده ، ومن جهته الظلمة والنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ)

[١٥] (فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ، هِيَ مَوْلَىٰكُمْ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

« يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ » يريدون موافقتهم فى الظاهر « قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ » أى محنتموها بالنفاق وأهلكتموها « وَتَرَبَّصْتُمْ » أى بالمؤمنين الدوائر ، ليظهر الكفر فتظهروا ما فى أنفسكم « وَٱرْتَبْتُمْ » أى فى توحيد الله ، ونبوّة نبيّه ، أو فى البعث بعد الموت ، أوفى قوله[1] (لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) ووعده بنصر المؤمنين ، أوفى جميع ذلك . « وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ » أى طول الآمال ، والطمع فى امتداد الأعمار . أوقولهم : (سيغفرلنا) . « حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ » يعنى : الموت ، أومصداق وعده بنصره رسوله ، وإظهاره دينه ، أو عذاب النار « وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ » أى الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة والفوز والغلبة . وقرئ (الغُرور) بالضم . « فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ » هذا من تتمة قول المؤمنين للمنافقين ، بعد أن ميز بينهم . أى فاليوم لا يقبل منكم مايفتدى به ، بدلاً من عذابكم ، وعوضاً من عقابكم « وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى المجاهرين بالكفر من الملحدين لله ولرسوله « مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ » أى أولى بكم ، أو تتولاكم كما توليتم موجباتها فى الدنيا « وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » أى النار .

ثم نعى عليهم رخاوة عقدهم فيما ندبوا إليه من التصدق فى سبيل الله ، بأن ذلك من أثرقلة العناية بالخضوع لذكره وتنزيله ، تعريضاً بالمنافقين ، وسوقاً للمؤمنين إلى الكمال ، فقال سبحانه :

---

(١) [٩ / التوبة / ٣٣] و [٤٨ / الفتح / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ)

« أَلَمْ يَأْنِ » أى ألم يحن . من (أنى الأمر) يأنى ، إذا جاء إناه ، أى وقته « لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ » أى أن تلين وترق وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم وما يوجبه من الوجل منه والخشية ، أو لذكر وعده ووعيده . « وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ » يعنى القرآن الذى لو أنزل على جبل لتصدع . قال أبو السعود : ومعنى الخشوع له ، الانقياد التامّ لأوامره ونواهيه ، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ، التى من جملتها ماسبق وما لحق من الإنفاق فى سبيل الله تعالى . وقد قيل: إن عطفه على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر ، وأن ذكر الله كـكلام الله ، بمعنى القرآن . وكذا مانزل من الحق ، فالعطف لتغاير العنوانين ، فإنه ذكر وموعظة ، كما أنه حق نازل . « وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ » أى الأجل والإمهال والاستدراج « فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » أى لزوال الخشية والروعة التى كانت تأتيهم من الكتابين « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ » أى خارجون عن دينهم ، نابذون لما فى كتابهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : فى الآية نهى للمؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، فإنهم لما تطاول عليهم الأمد، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلًا، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فقست قلوبهم ، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه . ولهذا نهى المؤمنون أن يتشبهوا بهم فى شىء من

الأمور الأصلية والفرعية . ونظير الآية قوله تعالى[1] (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ ...) إلى آخرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

«ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أى فهو محييكم بعد مماتكم ومحاسبكم ، فلا منتدح لكم عن الجزاء . أى فاحذروا مغبة القسوة والفسق . «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ» أى الحجج وضروب الأمثال « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لتثوبوا إلى عقولكم ومراشدكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[١٩] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ، وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ)

« إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ » أى المتصدقين والمتصدقات فى سبيل الله «وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ، وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ» أى لتصديقهم بجميع أخبار الله وأحكامه ، وشهادتهم بحقية جميع ذلك . وقد جوز فى الشهداء وجهان :

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] و [٥ / المائدة / ١٣] .

أحدهما ـ أن يكون معطوفاً على ما قبله ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وهو الظاهر ، لأن الأصل الوصل لا التفكيك .

والثانى ـ أن يكون مبتدأ ، خبره (لَهُمْ أَجْرُهُمْ) . و (ٱلشُّهَدَآءُ) حينئذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم ، أو الذين قتلوا فى سبيل الله . واختار الوجه الثانى ابن جرير[1] ، قال : لأن الإيمان غير موجب فى المتعارف للمؤمن اسم (شهيد) لا بمعنى غيره ، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه ، فيكون ذلك وجهاً ، وإن كان فيه بعض البعد ، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل[2] فتأويل قوله (وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ) إذن ، والشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله ، أو هلكوا فى سبيله ، عند ربهم ، لهم ثواب الله فى الآخرة ونورهم . انتهى .

ثم رأيت لابن القيّم فى (طريق الهجرتين) بسطاً لهذين الوجهين فى بحث الصديقية . ننقله لنفاسته . قال رحمه الله فى مراتب المكلفين فى الآخرة وطبقاتهم :

الطبقة الرابعة ـ ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق ، بعد الرسالة والنبوة ، وهى مرتبة الصديقية . ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى[3] (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقاً) . فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة . وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون فى العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته . فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه . وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على

انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) قوله : بغير وصل ، أى كقوله : (شهداء على الناس) .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] .

الحق ، لايضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. وقال تعالى[١] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) قيل : إن الوقف على قوله (هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ) ثم يبتدئ (وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ) فيكون الكلام جملتين ، أخبر فى إحداها عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل، والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه .وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم فى الآيتين، هنا، وفى سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء فى كلام النبيّ[٢] فى قوله : (اثبت أُحُدُ فإنما عليك نبيّ وصديق وشهيد) ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبى بكر الصديق . ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضى الله عنه .

وقيل : إن الكلام جملة واحدة ، أخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم . وعلى هذا ، فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهى قوله[٣]: (لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ) وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون فى الدنيا، وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفاً لجملة (المؤمنين الصديقين) .

وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا فى سبيل الله . وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين، ويكون قوله (وَٱلشُّهَدَآءُ) مبتدأ خبره مابعده ، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً فى سبيل الله . ويرجحه أيضاً أنه لو كان (الشهداء) داخلاً فى جملة الخبر ، لكان قوله (لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) داخلاً أيضاً فى جملة الخبر عنهم ، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء :

---

(١) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبى ﷺ : لو كنت متخذاً خليلاً، حديث ١٧٢٨ ، عن أنس .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

أحدها ـ أنهم هم الصدّيقون .

والثانى ـ أنهم هم الشهداء .

والثالث ـ أن لهم أجرهم ونورهم .

وذلك يتضمن عطف الخبر الثانى على الأول ، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف . وهذا كما تقول : زيد كريم وعالم له مال . والأحسن فى هذا تناسب الأخبار ، بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعا ، فتقول . زيد كريم عالم له مال ؛ أو كريم وعالم وله مال ، فتأمله ! ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم المذكورون فى الآية ، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً . فهؤلاء ثلاثة أصناف . ثم ذكر الرسل فى قوله تعالى [١] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ) فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة فى سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان : كفار ومنافقون ، فقال [٢] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا ..)الآية. وذكر المنافقين فى قوله[٣](يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ)الآية فهؤلاء أصناف العالم كلهم . وترك سبحانه ذكر المخلّط صاحب الشائبتين، على طريق القرآن فى ذكر السعداء والأشقياء ، دون المخلطين غالباً ، لسرٍّ اقتضه حكمته . فليحذر صاحب التخليط ، فإنه لاضمان له على الله ، فلا هو من أهل وعده المطلق ، ولا ييأس من روح الله، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب ، ولكنه بين الجنة والنار ، واقف بين الوعد والوعيد ، كل منهما يدعوه إلى موجبه لأنه أتى بسببه . وهذا هو الذى لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين ، ولكن غلطوا فى تخليده فى النار ، ولو نزلوه بين المنزلتين ، ووكلوه إلى المشيئة لأصابوا . انتهى كلام ابن القيم ، وفيه موافقة لما اختاره ابن جرير فى الآية .

(١) [٥٧ [الحديد / ٢٥] . (٢) [٥٧ / الحديد / ١٩] .
(٣) [٥٧ / الحديد / ١٣] .

ولما ذكر تعالى السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء ، وبين حالهم بقوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» .

ثم حقر تعالى أمر الدنيا ، وبين حاصل أمرها عند أهلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ » أى تفريح نفس « وَلَهْوٌ » أى باطل «وَزِينَةٌ» أى منظر حسن « وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ » أى فى الحسب والنسب « وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ » أى مطر « أَعْجَبَ الْكُفَّارَ » أى الزراع «نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ» أى يجف بعد خضرته ونضرته « فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا » أى من اليبس « ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا » أى هشيماً متكسراً ، وكذلك الدنيا لا تبقى كما لا يبقى النبات «وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ» أى لمن ترك طاعة الله ، ومنع حق الله « وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ » أى فى الآخرة لمن أطاع الله ، وأدى حق الله من ماله. «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» قال المهايمى : يأخذ صاحبها ملاعب الدنيا بدل ملاعب الحور العين . ولهوها بملاذ الجنة . وزينتها بزينة الجنة . والتفاخر بدل التفاخر بجوار الله والقرب ، والتكاثر بالأموال والأولاد بدل نعم الله والولدان المخلدين فى الجنة .

ولما حقر الحياة الحسية النفسية الفانية ، وصورها فى صورة الخضراء السريعة الانقضاء ، دعاهم إلى الحياة الباقية ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)

« سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » أى بادروا بالتوبة من ذنوبكم ، إلى نيل مغفرة وتجاوز عن خطيئاتكم من ربكم «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ » أى الإيمان اليقينىّ . « ذَٰلِكَ » أى المغفرة والجنة «فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ » أى ممن كان أهلا له« وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ »قال ابن جرير[1] أى بما بسط لخلقه من الرزق فى الدنيا ، ووهب لهم من النعم ، وعرّفهم موضع الشكر ، ثم جزاهم فى الآخرة على الطاعة ، ما وصف أنه أعدّه لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)

[٢٣] (لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[٢٤] (ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ)

« مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ » أى من قحط وجدب ووباء وغلاء « وَلَا فِىٓ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أَنفُسِكُمْ » أى من خوف ومرض وموت أهل وولد ، وذهاب مال « إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ » أى إلا فى علم أزلىّ من قبل خلق المصيبة أو الأنفس . وما علم الله كونه فلابد من حصوله « إِنَّ ذَٰلِكَ » أى حفظه وتقديره على الأنفس المبروءة ما قدر ، « عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » أى لسعة علمه وإحاطته « لِّكَيْلَا تَأْسَوْا » أى تحزنوا « عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ » أى من عافية ورزق ونحوهما « وَلَا تَفْرَحُوا » أى تبطروا « بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ » أى من نعم الدنيا . والمعنى : أعلمناكم بأنا قد فرغنا من التقدير ، فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير ، فلا الحزن يدفعه ، ولا السرور يجلبه ويجمعه . قال القاشانىّ : أى لتعلموا علماً يقينيًّا أن ليس لكسبكم وحفظكم وحذركم وحراستكم فيما آتاكم ، مدخل وتأثير . ولا لعجزكم وإهمالكم وغفلتكم وقلة حيلتكم ، وعدم احترازكم واحتفاظكم فيما فاتكم مدخل . فلا تحزنوا على فوات خير ، ونزول شر ، ولا تفرحوا بوصول خير . وزوال شر ، إذ كلها مقدرة « وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ » أى متبختر من شدة الفرح بما آتاه « فَخُورٍ » أى به على الناس ، لعدم يقينه ، وبعده عن الحق ، بحب الدنيا ، واحتجابه بالظلمات عن النور « ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ » أى بالإنفاق فى سبيل الله ، لشدة محبة المال « وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ » أى لاستيلاء الرذيلة عليهم . والموصول إما مبتدأ وخبره محذوف ، أى لهم وعيد شديد ، أو خبر ومبتدؤه محذوف ، أى هم الذين ، أو بدل من (كل) . « وَمَن يَتَوَلَّ » أى يعرض عن ذكر الله ، وما أمر به « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ » أى عنه ، لاستغنائه بذاته « ٱلْحَمِيدُ » أى لاستقلاله بكماله . وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ، لا لما يعود عليه تعالى ، فإنه الغنىّ المطلق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ » أى بالحجج والبراهين القاطعة على صحة مايدعون إليه « وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ » أى التامّ فى الحكم والأحكام « وَالْمِيزَانَ » أى العدل ـ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ـ قال ابن كثير : وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة « لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » أى بالحق والعدل ، وهو اتباع الرسل فيما أمروا به ، وتصديقهم فيما أخبروا عنه. فإن الذى جاءوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق، كما قال[1] (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلاً فى الأوامر والنواهى ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات[2] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) « وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » يعنى القتال به ، فإن آلات الحروب متخذة منه « وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » أى فى مصالحهم ومعايشهم ، فما من صناعة إلا وللحديد يدٌ فيها .

فإن قيل : الجمل المتعاطفة لابد فيها من المناسبة ، وأين هى فى إنزال الحديد مع ما قبله ؟

فالجواب : أن بينهما مناسبة تامة، لأن المقصود ذكر مايتم به انتظام أمور العالم فى الدنيا، حتى ينالوا السعادة فى الأخرى . ومن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله فى الدارين بالكتب والشرائع المطهرة. ومن أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم. ومن تمرد وطغا وقسا يضرب بالحديد ، الرادّ لكل مَريد . وإلى الأولين أشار بقوله[3]

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٣] .
(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

(وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ) فجمعهم وأتباعهم فى جملة واحدة . وإلى الثالث أشار بقوله [1] (وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ) فكأنه قال : أنزلنا ما يهتدى به الخواصّ ، وما يهتدى به أتباعهم ، ومايهتدى به من لم يتبعهم ، فهى حينئذ معطوفة ، لامعترضة لتقوية الكلام كما توهم ، إذ لا داعى له ، وليس فى الكلام مايقتضيه ، بل فيه ما ينافيه .

قال العتبيّ فى أول (تاريخه) : كان يختلج فى صدرى أن فى الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تنافراً ، وسألت عنه فلم أحصل على مايزيح العلة وينقع الغلة ، حتى أعملت التفكر ، فوجدت (الكتاب) قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يتضمن جوامع الأحكام والحدود ، وقد حظر فيه التعادى والتظالم ، ودفع التباغى والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل ، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة ، فلذا جمع (ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ) وإنما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف ، وجذوة عقابه ، وعذب عذابه ، وهو (الحديد) الذى وصفه الله بالبأس الشديد . فجمع بالقول الوجيز ، معانى كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، محكمة المطالع ، مقومة المبادئ والمقاطع ـ نقله الشهاب ـ .

وأوّل القاشانىّ (البينات) بالمعارف والحكم ، و (الكتاب) بالكتابة ، و(الميزان) بالعدل ، لأنه آلته ، و (الحديد) بالسيف ، لأنه مادته . قال : وهى الأمور التى بها يتم الكمال النوعىّ ، وينضبط النظام الكلىّ ، المؤدى إلى صلاح المعاش والمعاد ، إذ الأصل المعتبر والمبدأ الأول ، هو العلم والحكمة . والأصل المعول عليه فى العمل ، والاستقامة فى طريق الكمال ، هو العدل . ثم لاينضبط النظام ، ولايتمشى صلاح الكل إلا بالسيف والقلم اللذين يتم بهما أمر السياسة . فالأربعة هى أركان كمال النوع ، وصلاح الجمهور . ويجوز أن تكون (البينات) إشارة إلى المعارف والحقائق النظرية و (الكتاب) إشارة إلى الشريعة والحكم العملية و (الميزان) إلى العمل بالعدل والسوية و (الحديد) إلى القهر ودفع شرور

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

البرية . وقيل : (البينات) العلوم الحقيقية ، والثلاثة الباقية هى النواميس الثلاثة المشهورة المذكورة فى الكتب الحكمية . أى الشرع، والدينار المعدل للأشياء فى المعاوضات ، والملك. وأيًّا ما كان فهى الأمور المتضمنة للكمال الشخصىّ والنوعىّ فى الدارين ، إذ لا يحصل كمال الشخص إلا بالعلم والعمل، ولا كمال النوع إلا بالسيف والقلم . أما الأول فظاهر، وأما الثانى فلأن الإنسان مدنىّ بالطبع ، محتاج إلى التعامل والتعاون ، لا تمكن معيشته إلا بالاجتماع. والنفوسُ إما خيّرة أحرار بالطبع ، منقادة للشرع ، وإما شريرة عبيد بالطبع آبية للشرع . فالأولى يكفيها فى السلوك طريق الكمال والعمل بالعدالة واللطف وسياسة الشرع . والثانية لابدّ لها من القهر وسياسة الملك . انتهى .

تنبيه :

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة فى معنى نزول القرآن ولفظ النزول، حيث ذكر فى كتاب الله تعالى ، بيّن فيها أن كثيراً من الناس فسروا النزول فى مواضع من القرآن بغير ماهو معناه المعروف، لاشتباه المعنى فى تلك المواضع. وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع . وحقق رحمه الله أن ليس فى القرآن ولا فى السنة لفظ (نزول) إلا فيه معنى النزول المعروف . قال : وهو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العرب منزولًا إلا بهذا المعنى . ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها . ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى ، فى معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا . قال : وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد ، والحديد يخلق فى المعادن . وما يذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة ـ فهو كذب لا يثبت مثله . وكذلك الحديث الذى رواه الثعلبىّ عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ ؛ أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، فأنزل الحديد والماء والنار والملح ـ حديث موضوع مكذوب والناس يشهدون أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون .

فإن قيل : إن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للعيان .

وإن قيل : بل نزل معه آلة واحدة ، وتلك لا تعرف ، فأى فائدة فى هذا لسائر الناس ؟ ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثَمَ حديد موجود يطرق بهذه الآلات ؟ وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه ، الذى به يُنصر الله ورسوله ﷺ . وهذا لم ينزل من السماء .

فإن قيل : نزلت الآلة التى يطبع بها . قيل : فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعانى المتقدمة ، والآلة وحدها لا تكفى ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد .

ثم قال : وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق ، لأنه أخرجه من المعادن ، وعلمهم صنعته ، فإن الحديد إنما يخلق فى المعادن ، والمعادن إنما تكون فى الجبال . فالحديد ينزله الله من معادنه التى فى الجبال ، لينتفع به بنو آدم . انتهى كلامه رحمه الله .

وقوله تعالى « وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ » أى باستعمال الحديد فى مجاهدة أعدائه . عطف على محذوف دلّ عليه ما قبله . أى لينتفعوا به ويستعملوه فى الجهاد ، وليعلم الله . . . الخ . وحذف المعطوف عليه إيماء إلى أنه مقدمة لما ذكر ، وهذا المقصود منه . أواللام متعلقة بمحذوف . أى أنزله ليعلم . . . الخ والجملة معطوفة على ماقبلها . فحذف المعطوف ، وأقيم متعلقه مقامه . وقيل عطف على (لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ) . قال الشهاب : وهو قريب بحسب اللفظ ، بعيد بحسب المعنى .

« إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ » أى على إهلاك من أراد إهلاكه « عَزِيزٌ » أى غالب قاهر لمن شاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[٢٧] (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ » أى من الذرية « مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن طاعته ، بترك نصوص كتبه وتحريفها ، وإيثار آراء الأحبار والرهبان عليها ، واجترام ما نهوا عنه « ثُمَّ قَفَّيْنَا » أى أتبعنا « عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً » أى حناناً ورقّة على الخلق ، لكثرة ما وصى به عيسى عليه السلام ، من الشفقة وهضم النفس والمحبة . وكان فى عهده أمتان عظيمتا القسوة والشدة : اليهود والرومان . وهؤلاء أشد قسوة ، وأعظم بطشاً ، لاسيما فى العقوبات . فقد كان لهم أفانين فى تعذيب النوع البشرىّ بها . ومنها تسليط الوحوش المفترسة عليه ، وتربيتها لذلك ، مما جاءت البعثة المسيحية على أثرها ، وجاهدت فى مطاردتها ، وصبرت على منازلتها ، حتى ظهرت عليها بتأييده تعالى ونصره ـ كما بيّنه آخر سورة الصف ـ . « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » أى ما فرضناها عليهم ، وإنما هم التزموها من عند أنفسهم . « إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » استثناء منقطع . أى ولكنهم ابتدعوها طلبَ مرضاة الله عنهم . « فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » أى ما قاموا بما التزموه منها حق القيام من التزهُّد ، والتخلّى

للعبادة وعلم الكتاب ، بل اتخذوها آلة للترؤس والسؤدد ، وإخضاع الشعب لأهوائهم . « فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ » يعنى الذين آمنوا الإيمان الخالص عن شوائب الشرك والابتداع . ومنه الإيمان بمحمد صلوات الله عليه ، المبشر به عندهم . « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ » أى خارجون عن مواجب الإيمان ومقاصده .

تنبيهات

الأول ـ (الرهبانية) هى المبالغة فى العبادة والرياضة ، والانقطاع عن الناس ، وإيثار العزلة والتبتل . وأصلها الفعلة المنسوبة إلى الرَّهبان ، وهو الخائف . (فعلان) من رهب ، كـ (خشيان) من خشى .

الثانى ـ قال ابن كثير فى قوله تعالى : (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) : ذمٌّ لهم من وجهين :

أحدهما ـ فى الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله .

والثانى ـ فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل .

الثالث ـ رأيت فى كثير من مؤلفات علماء المسيحيين المتأخرين ذم بدعة (الرهبنة) وما كان لتأثيرها فى النفوس والأخلاق من المفاسد والأضرار . فقد قال صاحب (ريحانة النفوس) منهم ، فى الباب السابع عشر ، فى الرهبنة :

إن الرهبنة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معاشرة الناس ، واستعمال التقشفات والتأملات الدينية، هى ذات شأن عظيم . ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم فى الكتب المقدسة لأن مثال المسيح ، ومثال رسله يضادانه باستقامة ، فإنهم لم يعتزلوا عن الاختلاط بالناس ، لكى يعيشوا بالانفراد ، بل إنما كانوا دائماً مختلطين بالعالم، يعلّمون وينصحون . ونحن نقول بكل جراءة : إنه لا يوجد فى جميع الكتاب المقدس مثال للرهبنة، ولا يوجد أمر من أوامره يلزم بها. بل بالعكس ، فإن روح الكتاب وفحواه يضادّ كل دعوى مبنية على العيشة المنفردة المقرونة بالتقشفات . ولكن مع أن الكتاب المقدس لا يمدح العيشة الانفرادية ، فقد

ظهر الميل الشديد إليها فى الكنيسة ، فى أواخر الجيل الثانى وأوائل الجيل الثالث . وأيد بعض الباحثين المقاومين لها وقتئذ، أنها عادة سرت للمسيحيين من الهنود الوثنيين السمانيين. فإن لهم أنواعا كثيرة من عبادات تأمر كهنتها بالبتولية والامتناع عن أكل اللحم وأموراً أخرى مقرونة بخرافات .

ثم قال: ومع أن الرهبنة حصل عليها مقاومة من العقلاء، امتدت وانتشرت فى المسكونة. وكان ابتداؤها فى مصر فى الجيل الرابع ، على أثر اشتهار أحد الرهبان وممارسته التقشفات ، بسبب الاضطهاد الذى أصابه ، وآثر لأجله الطواف فى البرارى، فراراً من أيادى مضطهديه. ثم عكف على الوحدة ، وعاش بها، وذلك فى الجيل الثالث. ثم امتدت من مصر إلى فلسطين وسورية إلى أكثر الجهات. توهما بأن رسم المسيحية الكاملة لا يوجد إلا فى العيشة الضيقة القشفة ، فدعا ذلك كثيرين إلى ترك العيشة المألوفة بالاعتزال فى الأديرة . مع أن ذلك الوهم باطل ، ومضادّ للكتب المقدسة . ولما كثر عدد الرهبان كثرة هائلة ، ونجم عن حالهم أضرار عظيمة للمجتمع ، أصدر كثير من الملوك أوامر بمنع هذه العادة ، إلا أنها لم تنجح كثيراً .

وأما بدعة العزوبة والتبتل ، فنشأت مِنْ حَضّ بولس عليها ، وترغيبهم فيها ، كما أفصح عنه كلامه فى آخر الفصل السابع من رسالته الأولى .

وقد قال صاحب (ريحانة النفوس) أيضا : إن هذه العادة لا يوجد لها برهان فى الكتاب المقدس . وإنما دخلت بالتدريج ، لما خامرهم من توهم أفضلية البتولية ، وظنهم أنها أزكى من الزواج، ومدح من جاء على أثرهم لها مدحاً بالغاً النهاية فى الإطراء، فحسبوها من الواجبات الأدبية المأمور بها ، ووضع نظام وقوانين لوجوبها فى الجيل الثالث ، حتى قاومتها كنائس أخرى ، ورفضت بدعة البتولية وقوانينها ، لمغايرتها للطبيعة ، ومضادتها لنص الكتب الإلهية ، واستقرائها أديرة الراهبات ، بأنها فى بعض الأماكن كانت بيوتاً للفواحش والفساد .

وفى كتاب (البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل الباباوية) إن ذم الزيجة خطأ لأنها عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة ، وإن الأكثرين من رسل المسيح كانو ذوى نساء ، تجول معهم . ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغصب الإنسان على استيفاء حقها ، ومن العدل أن تستوفيه ، وليس بمحرم عليها استيفاؤه حسب الشريعة ، ولا استطاعة لجميع البشر على حفظ البتولية . ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة والقسوس والشمامسة ، لابل من الباباوات المدعين بالعصمة ، قد تكردسوا فى هوة الزنا ، لعدم تحصنهم بالزواج الشرعى . هذا وإن ذات النذر بالامتناع عن الزواج هو غير عادل ، لتضمنه سلب حقوق الطبيعة ، وكونه يضع الإنسان تحت خطر السقوط فى الزنا ، ويفتح باباً واسعا لدخول الشيطان . وكأن الراهب ينذر على نفسه مقاومة أمر الله ، ويعدم وجود ألوف ألوف ، ربما كانت تتولد من ذريته ، فكأنه قد قتلها . وهذا النذر لم تأمر به الشريعة الإنجيلية قط . فالطريقة الرهبانية هى اختراع شيطانى قبيح ، لم يكن له رسم فى الكتب المقدسة ، ولا فى أجيال الكنيسة الأولى ، وهو مضر على أنفس الرهبان ، وعلى الشعب ، فمن يقاومه يقاوم الشيطان . وهؤلاء الرهبان لانفع منهم للرعية ، إنما هم كالأمراء الذين يتخذون لأنفسهم قصوراً خارج العمران ، فيتنعمون وحدهم فى أديرتهم ، ويسلبون أموال الشعب بالحيل والمخادعات وهم كسالى بطّالون ، يعيشون من أتعاب غيرهم ، خلافاً لسلوك رسل المسيح ، والمبشرين القدماء ، الذين لم نر واحداً منهم انفرد عن العالم فى مكان نزهته ، واحتال بأن يعيش من أتعاب الشعب . إن بولس كان يخدم الكنائس ، ويعيش من شغل يديه ، وهو يوصى بأن الذى لايعمل ، فلا يطعم . ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التى وقعت على العالم بسبب الرهبنات . انتهى ، وهو حجة عليهم ، منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » قال ابن كثير: حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما فى الآية التى فى (القصص) وكما فى حديث[١] الشعبيّ عن أبى بردة ، عن أبيه أبى موسى الأشعريّ قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى، فله أجران. وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مولاه، فله أجران. ورجل أدب أَمَتَهُ فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ـ أخرجاه فى الصحيحين ـ ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاكُ وعتبة بن أبى حكيم وغيرهما. وهو اختيار ابن جرير[٢].

وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية فى حق هذه الأمة . والظاهر أن لفظها أعم ، وأن المقصود بها حث كل من آمن بالنبيّ ﷺ على الثبات فى الإيمان والرسوخ فيه ، والانصياع لأوامره . ومنه ماحرض عليه فى الآيات قبلها من الإنفاق فى سبيله ، وسخاوة النفس فيه . وأن لهم فى مقابلة ذلك أجراً وافراً، كما قال فى أول السورة: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ فآخر السورة ، فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به ، وماسبق نزولها لأجله .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣١ ـ باب تعليم الرجل أَمَتَهُ وأهله ، حديث رقم ٨٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

obeikandl.com

وأصل (الكفل) الحظ . وأصله ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط . والتثنية فى مثله إما على حقيقتها ، أو هى كناية عن المضاعفة . و (النور) هو ما يبصر من عمى الجهالة والضلالة ، ويكشف الحق لقاصده ، كما قال سبحانه[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)

« لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط . والتقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم ما ذكر ، ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا عدم قدرتهم على شىء من فضل الله ، وثبوت أن الفضل بيد الله . والمراد بالفضل ما آتاه المسلمين وخصهم به . لأنهم كانوا يرون أن الله فضلهم على جميع الخلق ، فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد آتى أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة ما لم يؤتهم ، ليعلموا أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله ، فضلًا عن أن يتصرفوا فى أعظمه ، وهو النبوة ، فيخصوا بها من أرادوا ، وأن الفضل بيد الله دونهم ، ودون غيرهم من الخلق ، يؤتيه من يشاء من عباده .

و (لا) فى (لئلا) صلة . قال السمين : وهو حرف شاعت زيادته .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢٩] .

وقال ابن جرير[١] : وذكر أنّ فى قراءة عبد الله (لكى يعلم) . قال : لأن العرب تجعل (لا) صلة فى كل كلام دخل فى أوله أو آخره جحدٌ غير مصرح كقوله فى الجحد السابق الذى لم يصرح به[٢] : (مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) وقوله[٣] : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) . وقوله[٤] : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ...) الآية. ومعنى ذلك : أهلكناها أنهم يرجعون . انتهى .

ونقل الثعالبىّ فى (فقه اللغة) زيادتها فى عدة شواهد . فى فصل الزوائد والصلات التى هى من سنن العرب . فانظره ، تزدد علماً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٢] . (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٩] .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

obeikandl.com